

نشيد السجن والثورة لمفدي زكريا

The anthem of prison and revolution by Mufdi Zakaria

الدكتورة: زكية يحياوي

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة الجزائر 2 - (الجزائر)

zakia.yahiaoui@univ-alger2.dz

تاريخ النشر: 2023/12/05

تاريخ القبول: 2023/11/02

تاريخ الإبداع: 2023/05/01

ملخص:

إن أناشيدنا وأشعارنا الوطنية قبل الثورة على اختلاف ناظمها ومنشديها كانت عموماً إرهابات وتكهنات بالحرية والاستقلال، أو دعوات حارة لهما، بالتصريح تارة، وبالتلويح تارة أخرى، وتحتّ من اجلهما على العمل ومحاربة الكسل في كل ميدان من ميادين النشاط النضالي والكفاح الوطني، ويهدف البحث إلى الكشف عن مظهرات الثورة الجزائرية و صور الحياة في سجون المستعمر وكذا مخططات الثورة الجزائرية وطرق تمكثها من تحقيق أهدافها ،لنصل في النهاية إلى كيفيات البناء الفني و اللغوي التي استطاع بها الشاعر أن يقدم الثورة الجزائرية للمتلقى.

الكلمات المفتاحية: الشعر؛ الثورة؛ مفدي زكريا؛ السجن؛ الجزائر.

Abstract

Our national songs and poems before the revolution, regardless of their poets and forms, were generally expressions and speculations about freedom and independence, or passionate calls for them, sometimes declared outright, and sometimes alluded to. They encouraged action and the fight against laziness in every field of struggle and national activism. . one of the most famous poets who sang about the Algerian revolution. In this study, we aim to uncover the methods of depicting prison scenes and revolution schemes in his poetry.

key words: Poetry; Revolution; Mufdi Zakaria; Prison; Algeria.

مقدمة:

ارتباطُ اسم مفدي زكريا بالثورة التحريرية لا يقتصر على كونه مؤلف نشيدها الرسمي، بل لأنه سَخَّر لها موهبته الشعرية، وقد جمع ما كتبه عنها في ديوان شعري بعنوان "اللهب المقدّس". ولم تنته حكايته مع "الشعر الوطني" بانتهاء الثورة؛ إذ كتب في بداية سبعينيات القرن الماضي "إلياذة الجزائر"، وهي منظومةٌ شعرية من ألف بيت تتناول تاريخ الجزائر منذ العصور القديمة إلى ما بعد الاستقلال. ومن أبرز ما نظمه مفدي في دواوينه مشاهد السجن ومآسيه حتى وهو يتغنى بجمال الجزائر وبطولات شعبها.

مآلات الثورة والسجن في شعر مفدي زكريا:

التصريح بالحرية والاستقلال كان الغالب الأكثر في شعر شعرائنا وأناشيدهم، الذين كانوا رسل ثورة ونضال ودعاة حرية واستقلال، كما في أناشيد مفدي زكريا.

يذهب الدكتور عبد الركيبي إلى أن «هناك ثمة ميزة بارزة نلاحظها في الشعر الجزائري عموماً، وهي أنها شعر نشيدي، أي أن الصفة التي تغلب عليه هي الحماس، الذي يطغى على موسيقاه وعلى وزنه وعلى ألفاظه نفسها، فهو شعر المعركة الذي يتجاوب مع وقع خطوات الجندي في الميدان ويتماشى وثباته في المعركة»⁽¹⁾.

إن الموسيقى التي يعنينا الركيبي هي الموسيقى الحماسية أو الثائرة، أي موسيقى المعارك والبطولات، فهي تتناسب مع حركات الجنود وخطواتهم المنتظمة في الميدان.

لذلك وجب على الشاعر ناظم النشيد أن يضع في اعتباره عند نظمه النشيد، قبوله لتلحين وطواعيته للغناء والإنشاد، مادام الهدف من النشيد هو إثارة الحماسة عن طريق غنائه بعد تلحينه بلحن يتناسب مع ما في مضمونه، من حماسة وقوة، فالتلحين الحماسي يعطي النشيد صبغة أثر تثيراً، تبعث في السامع نخوة وحماسة.

وللنشيد عند مفدي زكريا قيمة خاصة، كما أن لمفدي في مجال النشيد قيمة خاصة ودور بارز متفرد، وليس من المبالغة في شيء أن يقول محمد عبد الغني حسن «لو كنت من

الذين يصنعون الألقاب أو يضعونها لأضيفت على الأستاذ مفدي زكريا لقب (شاعر الأناشيد) لكثرة ما وضع من النشيد الرسمي في المناسبات المختلفة وللهيئات المختلفة»⁽²⁾.

وأن يذهب عبد الله ركيبي إلى أن «رائد هذا اللون من الشعر-شعر الأناشيد-دون منازع هو الشاعر مفدي زكريا»⁽³⁾.

ونظرة إحصائية بسيطة إلى الأناشيد الوطنية الجزائرية، تبين صحة الرأيين المتقدمين، ومما لاحظناه أن جل هذه الأناشيد كانت وليدة السجون والزنايات التي زج بها الشاعر مفدي زكريا وذلك من خلال القصائد والأناشيد وذكر الأمكنة التي نظمت فيها:

1-نشيد بربروس: سجن بربروس، الزناية رقم (73) في 1955/04/28⁽⁴⁾.

يا سجن إزخر بجنود الكفاح فأنت يا سجن طريق الخلود

أنت محراب الضحايا في حناياك الأسود

أنت أنت أنت يا بربروس

يا مصنع المجد ورمز الفدا يا محبط الوحي لشعر البقاء

يا معقل الأبطال والشهدا يا منتدى الأحرار والملتقى

أصبحت يا سجن لنا معبدا عليك نتلو العهد والموثقا

2-نشيد الذبيح الصاعد: سجن بربروس، الزناية رقم (09) في 1955/07/18⁽⁵⁾.

قام يختال كالمسيح وثيدا يتهادى نشوان، يتلو النشيدا

شامخا أنفه جلالا وتيها رافعا رأسه يناجي الخلودا

وامتطى مذبح البطولة معرا جا ووافى السماح يرجو المزيد

3-نشيد قسما: سجن بربروس، الزناية رقم (69) في 1955/04/25⁽⁶⁾.

قسما بالنازلات الماحقات والدماء الزاكيات الطاهرات

والبنود اللامعات والخافقات في الجبال الشامخات الشاهقات

نحن ثرنا فحياة أو ممات وعقدنا العزم ان تحيا الجزائر

فاشهدوا فاشهدوا فاشهدوا

4-نشيد الشهداء: سجن بربروس، الزنزانة رقم (69) في 1957/11/29⁽⁷⁾.

نحن روينا الثرى من دمنا وغرسنا في ذراها الأضلع

وزرعنا في رباها مهجا وسقينا الزرع حتى أينعا

5-نشيد يا جمال: سجن بربروس، الزنزانة رقم (69) في 1956/10/29⁽⁸⁾.

حيث كان الشاعر في سجن بربروس في الزنزانة رقم (69) خلال الاعتداء على مصر في

أكتوبر 1956، فلم يسعه إلا أن قال:

قال يا جمال، يردد قولك الهرم واحكم بما شئت تنجز حكمك الأمم

واصدع بأمرك، والثالوث يرهبه وأخفق بثغر الحمى، يخفق به العلم

واحفظ لمصر (قناة) في حشاشتها جرى بها-قبل أن يجري البخار-دمو

إرادة الشعب أن تصدق عزمته إرادة الله يجري باسمها القلم

6-نشيد وتعطلت لغة الكلام: سجن بربروس القاعة (09) في فيفري 1957.

7-نشيد عشت يا علم: سجن البرواقية دون ذكر التاريخ.

8-نشيد جيش التحرير: سجن البرواقية دون ذكر التاريخ.

9-نشيد بنت الجزائر: سجن بربروس الزنزانة رقم (83) أوت 1956.

10-نشيد الطلاب: سجن بربروس دون ذكر التاريخ.

11-النشيد الرسمي للاتحاد العام للشغالين: سجن بربروس، الزنزانة رقم (69) في

1956/07/12.

12-نشيد اعصفي يا رياح:سجن بربروس، 1955.

ونشيد من جبالنا، الذي يقال عنه إنه وليد 1946 وهو رد فعل ضد أحداث 08 ماي 1945، وتضاربت الآراء حول نسبته لأكثر من شاعر، قد يكون من بينهم مفدي زكريا.

وبعد هذا الحصر، يتبين لنا أن الشاعر مفدي زكريا قد قضى شطرا من حياته في زنازات العذاب، وهذا دليل على إيمانه بالثورة الجزائرية وقضية شعبه، لذلك نرى شعره صوت نوفمبر، و(نوفمبر) يعني الثورة المسلحة، فالشاعر لا يرى في السجن إلا أنه طريق الخلود ومحراب الضحايا، لا يرى فيه إلا عرينا يضم أسودا، وهو مصنع الأمجاد ورمز الفداء، وللشاعر مهبط الوحي يلهمه شعر الخلود والبقاء، إنه معقل الأبطال والشهداء.

ولعل من أسباب قوة التعبير في أناشيد مفدي زكريا وحدة الأفكار ميلاد تلك الأناشيد بين القضبان، وظلمات السجون، فبالرجوع إلى الديوان وجدنا أن كل أناشيده كانت وليدة السجون، باستثناء نشيد الانطلاقة الوطنية الأولى، الذي نظمها الشاعر قبل أن يعرف السجون طويلة الأمد، ونشيد الثورة الذي نظمها قبيل دخوله السجن.

إنّ السجن بما يملك من إرهاب وتعذيب، وما يوفر للشاعر من لقاء مستمر بنزلائه الذين لا يجمع بينهم إلا "ذنب الوطنية"، وما يفرض عليهم من عزلة عن الحياة.

كل ذلك يجعل الشاعر يعيش الثورة بكل وجدانه، فتشغل تفكيره وتعمق كراهيته لمستعمر، وتجعله أكثر ذوبانا وانصهارا في القضية الوطنية، بحيث تمتزج بدمه، وتسري في عروقه، وتصبح وجوده وقضيته وهمّه الشخصي الذين يلوحون عليه في الصباح والمساء وظلمة الليل، فيقوى بذلك عنده التحدي، ويطغى عليه الاندفاع في المواجهة والتصدي، فتخرج كلماته كما تخرج القذائف من فوهاتنا تلتهم ثورة ورفضاً وتصيب هدفها في الصميم الذي هو العدو.

وفي هذا الصدد يقول المناضل الإفريقي (فرانس فانون): «لا يكفي أن ينظم الأديب أنشودة الثورة ليعتبر مساهما فيها، عليه أن يصنع الثورة مع الشعب، فتأتي الأناشيد بعد ذلك من تلقاء نفسها»⁽⁹⁾.

وهذا الرأي لا يكفي لتخليد أي شاعر ووصفه بالثائر لمجرد مشاركته بالشعر والأناشيد، إنما يطلب منه مشاركة الشعب في صنع الثورة حتى لا تكون أناشيده مفتعلة متكلفا فيها، بل تكون نتيجة مشاركة فعلية، وترسم صورة حقيقية لوجه الثورة، بعيدة عن التصنع والتجميل وعن التشويه أيضا.

ولعل شيئا من قوة التعبير وصدقته في أناشيد مفدي زكريا يرجع إلى تحقق هذا المطلب العسير لديه. فمفدي بقدر ما عرف شاعرا بقدر ما عرف سياسيا ومناضلا من الرعيل الأول للاتجاه الثوري، ومن أبرز ما يثبت ذلك نشاطه في حزب شمال إفريقيا ثم حزب الشعب... وتبوؤه منصب أمين عام له، ورئيس تحرير مجلته، ثم نشاطه في جمعية طلبة شمال إفريقيا... ومن عوامل قوة التعبير وصدقته أيضا في أناشيد مفدي، معاشته التجربة (القضية) واقعيا، فلم يتحدث في أناشيده عن ثورة سمع أو قرأ عنها، بل عن ثورة عاشها يوميا، ولم يعيشها وجدانيا فحسب (كأن يتعاطف مع الثورة من الخارج) بل عاشها مكانيا لا بوجوده وقتها في الجزائر فقط. وإنما بوجوده داخل السجن، وأي مكان أقرب إلى الثورات وأحسن مناخا لها من السجن؟

والنشيد الوطني الجزائري يحمل طابعا خاصا بمفدي من الدعوة إلى الاستقلال دون موارد أو رمز، ومن الاعتماد على الجبال لتحقيق ذلك، لتلك الجبال التي تتخذ في شعر مفدي قيمة خاصة ودورا كبيرا تتجلى في نظرة الشاعر إلى طبيعة الجزائري على أنها طبيعة تنضح بالرفض، وتصنع الثورة مع الإنسان⁽¹⁰⁾.

هذه الثورة التي أخذت أبعادها، حتى أنه جعل عنوان ديوانه "اللهب المقدس" لكونه أناشيد للثورة الجزائرية، ويعد نشيد الشهداء ذروة الشعر الثوري في مراحل لم تزل سياسية، أو هو بالأحرى ذروة التعبئة السياسية، ولهذا فرض هذا النشيد الذي انطلق من ظلمات سجن بربروس نفسه على الأيام والليالي حتى وجد إبطاره الصحيح في ثورة نوفمبر، حيث أصبح النشيد الرسمي للشهداء يدوي في أرجاء بربروس كلما اقترب شهيد من المقصلة.

وشاعرنا لم يكن حديثه عن الشهداء تصورا، وإنما رأى بأمر عينيه كيف يؤخذ المناضل إلى المقصلة، أو كيف يرمى بالرصاص، ولا شك في أنه استطاع في تشخيصه أن يربط بين القضية من جهة، وبين الاستشهاد من أجلها من جهة ثانية، فهو وجهها لوجه أمام الشهيد (أحمد زيانا) ساعة تنفيذ حكم الإعدام في القاعة (09) داخل سجن بربروس في جويلية من عام 1955، ذلك هو الذبيح الصاعد في شعر مفدي زكريا:

قام يختال كالْمسيح وإذا يتهدى نشوانا يتلوا النشيدا⁽¹¹⁾

وتعالى مثل المؤذن، يتلو كلمات الهدى، ويدعو الرقودا

صرخة ترجف العوالم منها ونداء مضى يهز الوجود

أشْناقوني، فلسْت أخشى حبالا واصلبوني فلسْت أخشى حديدا

واقض يا موت ما أنت قاضي أنا راض، إن عاش شعبي سعيدا

أنا إن مت، فالجزائر تحيا حرة، مستقلة، لن تبيدا

خاتمة:

ذلك هو مفدي زكريا إذن الشاعر الذي قال الشعر مناضلا، ثائرا وقاله ملهما مبدعا، معبرا عما يؤمن به، وهو يملك حماسة شديدة للجهر بما يقول، لا معبرا عن أفكاره كما يشاء الآخرون، بل كما عاشها وأرادها هو وحده. وقد دارت أشعاره الثورية حول:

- تأكيد رفض الشعب الجزائري المطلق للاستعمار الفرنسي.
- المزوجة بين الثوري والجمالي من أجل التأثير في المتلقي.
- تضمين الحس الثوري في الشعروفي النفوس.

الهوامش:

- ¹-عبد الله ركيبي: جريدة الصباح التونسية، العدد 3027، ب 1962/05/03.
- ²-محمد عبد الغني حسن: جوانب مضيئة من الشعر العربي، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1972، ص 246.
- ³-عبد الله الركيبي: جريدة الصباح التونسية، العدد 3027، ب 1962/05/03.
- ⁴-مفدي زكريا: اللهب المقدس، الشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر 1983، ص 124.
- ⁵-المصدر نفسه، ص 09.
- ⁶-المصدر نفسه، ص 71.
- ⁷-المصدر نفسه، ص 88.
- ⁸-المصدر نفسه، 299.
- ⁹-فرانس فانون (1925-1961) من المناضلين الإفريقيين الأحرار الذين شاركوا في ثورة التحرير الجزائرية، ولد بجزيرة المارتنيك التابعة لفرنسا، وعين طبيبا نفسيا في مستشفى البلدية سنة 1954، وفي سنة 1957 قَدّم استقالته وأعلن انضمامه للثورة الجزائرية، ومثّل الجزائر في مؤتمر وحدة الشعوب الإفريقية سنة 1958، توفي سنة 1961 ودفن بالجزائر عملا بوصيته.
- ¹⁰-يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا، ط 01، قسنطينة 1987، ص 201.
- ¹¹- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص 09.

قائمة المراجع:

1. عبد الله الركيبي: جريدة الصباح التونسية، العدد 3027، ب 1962/05/03.
2. محمد عبد الغني حسن: جوانب مضيئة من الشعر العربي، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1972، ص 246.
3. مفدي زكريا: اللهب المقدس، الشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر 1983، ص 124.
4. يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا، ط 01، قسنطينة 1987، ص 201.